مناهَضة الأُطُر السائدة للصدمة والشهادات الشخصيّة:

سرديّات الأطفال الفلسطينيّين من داخل الإبادة الجماعيّة المعاصرة

رانية جواد، سما دواني،
سعيد شحادة، بيسان نتيل

كانون الأوّل 2025

مدى الكرمل
علم النفس التحرّري
Liberation Psychology

برنامج علم النفس التحرّري

مناهَضة الأُطُر السائدة للصدمة والشهادات الشخصيّة: سرديّات الأطفال الفلسطينيّين من داخل الإبادة الجماعيّة المعاصرة

رانية جواد

أستاذة مساعِدة في دائرة الأدب الإنجليزيّ بجامعة بيرزيت. تركّز منشوراتها وأعمالها الأخيرة على كتابات نساء غزّة خلال الإبادة الجماعيّة، وسياسات إنتاج الشهادات الشخصيّة.

سما دواني

أستاذة مساعِدة في دائرة العلوم الاجتماعيّة والسلوكيّة بجامعة بيرزيت. يركّز اهتمامها البحثيّ على بناء الهُويّة والمراهَقة وحسن الحال من عدسة نفسية تحررية.

سعيد شحادة

أخصائي نفسي عيادي، يعمل معالجًا نفسيًا وباحثًا في دراسة الذاتيّة الفلسطينيّة في ظل الاستعمار الاستيطاني. يعمل كذلك على تطوير تدخّلات مناهضة للاستعمار من منطلق عدسة نفسيّة تحرريّة.

بيسان نتيل

كاتبة وشاعرة من غزّة، تعمل منسِّقة مجموعات شبابيّة في مؤسّسة تامر للتعليم المجتمعيّ.

* هذا العمل جزء من مشروع بحثيّ حول شهادات النساء من غزّة في ظلّ الإبادة، مدعوم من لجنة الأبحاث في جامعة بير زيت، تقوده د. رانية جواد.

* نُشِرت المقالة بالإنجليزيّة في مجلّة الدراسات الفلسطينيّة، وترجمتها إلى العربية د. سما دواني.

كانون الأوّل 2025

حقوق النشر محفوظة 2025

مدى الكرمل- المركز العربيّ للدراسات الاجتماعيّة التطبيقيّة

العنوان: شارع هميچنيم 90، حيفا

البريد الإلكترونيّ: mada@mada-research.org

رقم الهاتف: 04-8552035

مقدّمة

اجتمعنا في 8 أيّار 2024، في جامعة بير زيت لمحاوَرة الكاتبة والعاملة الشبابيّة بيسان نتيل، بينما كانت تقوم بتوثيق قصص الأطفال على شواطئ دير البلح في قِطاع غزّة.[1] نشأت بيسان (وهي في الأصل من المجدل) في شمال غزّة، ونزحت إلى دير البلح في منتصف تشرين الأوّل 2023.[2] سُمِّيَ اللقاء الافتراضيّ الحيّ معها "أطفال البحر في الحرب"، تبعًا لعنوان المجموعة القصيرة التي كتبتها بيسان والتي تتكوّن من حِوارات سرديّة مع الأطفال النازحين الذين قابلتهم.[3] تؤكّد اللحظاتُ التي التقطتْها مع الأطفال الحاجةَ إلى إيجاد اللغة التي تُوفّر طُرُقًا للمعرفة والرؤية من داخل الإبادة. توثّق هذه اللحظات تفاصيل جرائم الإبادة الجماعيّة الصهيونيّة، وبنفس القَدْر من الأهمّيّة تروي تفاصيل حياة الأطفال وكيف يعبّرون عمّا يعيشونه. مدفوعةً بالمسؤوليّة للحفاظ على قصصهم، تتساءل بيسان: ما هي الكلمات والمصطلحات واللغة الجديدة التي يجب تشكيلها لوصف ذواتنا وتجاربنا؟ كيف تَغَيَّرَ معنى الحياة خلال الحرب، وكيف سيتغيّر بعدها؟

بينما يمتدّ الاستعمار الاستيطانيّ الصهيونيّ إلى ما قبل عدّة عقود قبل السابع من أكتوبر 2023، فإنّ تَمَظْهُرَهُ الإباديّ بعد ذلك التاريخ يتجلّى في استهدافه المتعمَّد للأطفال الفلسطينيّين، للحياة المستقبليّة وحتّى لقدرة الفلسطينيّين على تخيُّل مستقبَلٍ ما لهم.[4] انضمّت بيسان إلينا عبْر تطبيق زوم لأكثر من ساعتَيْن أمام جمهور مباشر، لمناقشة كيف انبثقت وتشكّلت مجموعة الحِوارات السرديّة، سيرورة توثيق قصص الأطفال، وكيف أُعِيدَ تشكيل المعرفة حول ماهيّة الحياة بعد سبعة أشهر من الإبادة الجماعيّة.[5] لقد ظهرت بيسان على الشاشة أمامنا بوضوح كبير في الصورة والكلمات والحياة لدرجة أنّنا شعرنا بأهمّيّة أن نُشارك بعضًا من حِوارنا الجماعيّ. في هذا المقال، نُناقش كيف أنّ انخراط بيسان مع الأطفال وإنتاجها المشترَك لسرديّاتهم يختلف عن عمليّة جمع الشهادات التي غالبًا ما تُمَوْضِع أصحابها في موقع الضحيّة لحدثٍ معيَّنٍ في وقتٍ ما، بل بخلاف ذلك، ما تقوم به بيسان يعمل على زعزعة الأنظمة والنماذج النفسيّة السائدة التي تُنتِج معرفة حول الأطفال في الحرب.

---

1. صدرت مذكّرات بيسان أثناء الإبادة ونُشِرت باللغة العربيّة عام 2025 عن دار طباق للنشر، من *ذاكرة العدوان*.

2. لا تزال الإبادة الجماعيّة الوحشيّة جارية ضدّ الفلسطينيّين أثناء كتابة هذا النصّ. في مطلع عام 2025، غادرت بيسان دير البلح عائدة إلى الشمال.

3. شاركت بيسان هذا النصّ معنا قبل الحِواريّة. منذ ذلك الحين، قامت بتوسيع النصّ السرديّ إلى كتاب ستنشره باللغة العربيّة مؤسّسة تامر عام 2025 بعنوان *كيف نعيد بناء القصّة؟*

4. من بين الحالات الموثّقة حاليًّا منذ حرب الإبادة الجماعيّة أنّ الجيش الإسرائيليّ قتل أكثر من 20,000 طفل وأصاب أكثر من 40,000. "غزّة: مقتل 20,000 طفل خلال 23 شهرًا من الحرب، يُقتل أكثر من طفل واحد في الساعة".

Save the Children, September 6, 2025, https://www.savethechildren.net/news/gaza-20000-children-killed-23-months-war-more-one- child-killed-every-hour.

حول reprocide كمحاولة من محاولات إسرائيل للقضاء على مستقبل الفلسطينيّين، يمكن الاطّلاع على:

Hala Shoman, "Israel's War on Reproduction in Gaza," *Middle East Report*, no. 314 (June 11, 2025), https://merip.org/2025/06/israels-war-on-reproduction-in-gaza.

حول استهداف إسرائيل الممنهج للأطفال خلال الإبادة، يمكن الاطّلاع على:

Rachel Rosen and Mai Abu Moghli, "Israel's War on Gaza Is Deliberately Targeting Children–New UN Report," *The Conversation*, March 19, 2025, https://theconversation.com/israels-war-on-gaza-is-deliberately-targeting- children-new-un-report-252398; Francesca Albanese, *Genocide as Colonial Erasure: Report of the Special Rapporteur on the Situation of Human Rights in the Palestinian Territories Occupied Since 1967*, A/79/384, October 1, 2024, https://docs.un.org/en/A/79/384; Philippe Lazzarini (@ UNLazzarini), "Staggering. The number of children reported killed in just over 4 months in #Gaza," X, March 12, 2024, https://x.com/UNLazzarini/status/1767618985397272831.

5. نظّم هذه الحِواريّةَ معهدُ دراسات المرأة في جامعة بير زيت. للاطّلاع:

https://iws.birzeit.edu/articles/view/113/en/women-s-testimonials-from-gaza-children-of-the-sea-during-war-with-Bisan-nateel

يدعونا عملها إلى التفكير في الطرق التي نتحدّث بها عن الحياة في ظلّ الإبادة الجماعيّة واستهدافها المتعمَّد لمستقبَلنا في فلسطين.

"أقول إنّها حكايتي"

كتبت بيسان في 24 شباط 2024 في منشور عامّ: "أرفض حكايتي الآن، وهذا لا يعني ألّا أسردها عليكم من بين ظلمة الأيّام وظلام الخيام... أرفض حكايتي التي لم أَكُنْها، أُجبِرتُ عليها، وهذا لا يعني أنّني لا أعيشها وأقول إنّها حكايتي!"[6] تعكِس كلماتها الثاقبة المعضلةَ الذي فُرِضت على الفلسطينيّين خلال حرب الإبادة الإسرائيليّة: كيف يمكن ألّا يجري حصرهم وتعريفهم من خلال الفظائع التي تعرّضوا لها، وكيف يمكن التعبير بالكلمات عن التجارب الوحشيّة والمروّعة التي تعرّضوا لها دون أن تتبدّد وتتوارى إنسانيّتهم. إنّ مفهوم الإنسانيّة المشار إليه هنا ليس معقّدًا، وغالبًا ما يجري التعبير عنه في رفض الاختزال إلى رقْم يُحْصى بين القتلى أو الجرحى، أو الحقّ في حياة كريمة فضلًا عن الموت الكريم، وهي أمنية مؤلمة في وجه الاستخدام الواسع النطاق للأسلحة المتطوّرة لتقطيع أجساد الفلسطينيّين. في الغالب، تتمركز النقاشات المتعلّقة بتوثيق وحشيّة الاستعمار الاستيطانيّ الذي يستهدف أجساد الفلسطينيّين حول الحاجة إلى إثبات "إنسانيّة" الفلسطينيّين للعالم، أو تقديم أدلّة قانونيّة وخبراتيّة حول الجرائم الصهيونيّة،[7] إلّا أنّ النصوص الحميميّة التي تكتبها بيسان تبدو موجَّهة إلى ذاتها، وإلى الأحبّاء المحاصَرين داخل قِطاع غزّة، وإلى الفلسطينيّين في جميع أنحاء فلسطين المستعمَرة الذين يتلقَّوْن معلومات حول أولئك الذين استُشهِدوا أو أصيبوا، والذين لا يزالون مدفونين تحت الركام، والذين لا يزالون مفقودين.

تؤكّد بيسان على "فعل" السرد أثناء سردها لتجارب الحياة الفلسطينيّة، وبذلك تقاوِم المحو الفلسطينيّ، الذي يتضمّن نزع الطابع السياسيّ عن نضال الشعب من أجل التحرُّر الوطنيّ وإعادة تشكيله وحصره في نطاق مَهَمّات الإغاثة الإنسانيّة. بينما تقوم بذلك، هي ترفض أيضًا أن يكون التدمير الشامل لغزّة -منازلها ومدارسها وشوارعها ومساجدها وزراعتها ومكتباتها وبنْيتها التحتيّة وكلّ الحياة والتاريخ الذي تحتويه- السرديّةَ المهَيْمِنة حول ما نعرف عن الإبادة. على نحوٍ جزئيّ، يُمثّل هذا الرفض التزامًا واعيًا من قِبل بيسان، وما يصاحبه من الحاجة إلى الحفاظ على قصصنا وتجاربنا لأنفسنا في المقام الأوّل، مسهِمًا في كيف تُبنى معرفتنا حول النكبة الحاليّة. تُقاوِم كتاباتها، بما في ذلك هذا النصّ الذي جرى بناؤه مع الأطفال الذين التقت بهم، الإبادةَ والمحو الاستعماريّ، وكذلك تقاوِم المصطلحات والطرق المستخدَمة في تغطية الإبادة، تلك التي تركّز بالدرجة الأولى على مَشاهد الأجساد المقطَّعة والأشلاء على حساب صور الحياة والعلاقة مع الأرض والوطن.

من خلال مزيج من وصف لحظات اعتياديّة من حياتهم قبل الإبادة، والعنف والتعذيب المروّع الذي تعرّضوا له في أثنائها، وآمالهم البسيطة عندما تنتهي الإبادة، تُظهر لنا بيسان كيف أُعيدَ تشكيلُ علاقة الأطفال بجوانب أساسيّة في حياتهم قسرًا، كالبحر والأرض والبيت والمدرسة والطعام والماء.

6. "أرفض حكايتي الآن" على فيسبوك بتاريخ 2024/2/24: https://url-shortener.me/2F78.

7. حول أهمّيّة تقديم أدلّة على الجرائم الصهيونيّة، يمكن الاطلّاع على:

Allen, Lori. (2009). Martyr Bodies in the Media: Human Rights, Aesthetics, and the Politics of Immediation in the Palestinian Intifada. *American Ethnologist* 36, no. 1: 161-180. https://doi.org/10.1111/j.1548-1425.2008.01100.x

في هذه السرديّات، لم يَعُدِ البحر مصدرًا للرزق ومكانًا للّعب في مياهه، بل أصبح موقعًا للحصار والحرب البحريّة التي تستهدفهم. في هذه السرديّات، تحوّلت المدرسة إلى مِساحة صغيرة ينامون فيها ويأكلون ويشربون محاولين البقاء على قيد الحياة. في هذه السرديّات، تَغيَّرَ ما يُعتبَر شمالًا وجنوبًا بالنسبة إليهم، وتَحوَّلَ المألوف إلى ما لم يَعُدْ من الممكن التعرُّف عليه، بسبب عمليّات النزوح المتعدّدة والتدمير الإسرائيليّ وإعادة تشكيل القِطاع قسرًا. وهو تشويهٌ مكانيّ وزمانيّ للحياة الفلسطينيّة في غزّة؛ إذ يجري استهداف الذكريات والمستقبل على نحوٍ إستراتيجيّ شرس من قِبل آلة الحرب الاستعماريّة الصهيونيّة.

صورة رقم 1. شاطئ دير البلح في قِطاع غزّة. التَقَطت الصورةَ بيسان نتيل في آذار 2024.

تُقدّم بيسان الأطفال الذين التقت بهم بالاسم والعمر وصورة للطفل والمنطقة التي كانوا يعيشون فيها في القِطاع والتي هُجِّروا منها قسريًّا. يأتي نصّها مزيجًا من وصف لتفاصيل حياتهم قبل الإبادة وأثناءها، وكلمات الأطفال (التي سجّلتها بيسان)، والتساؤلات التي تدور في أذهانهم حول المستقبل، إضافة إلى انعكاساتها الذاتيّة بجانب الأطفال. وبالتالي تُصبح مجموعتها مزيجًا متعدّد الأصوات للحياة الفلسطينيّة في تفاصيلها الدقيقة وتشكُّلاتها الواسعة النطاق. يتداخل صوت بيسان مع صوت الأطفال كنسيج، وكأنّها ترافقهم وتحملهم، حرفيًّا ومجازيًّا. في بعض الأحيان، نسمع بيسان تروي تجارب الأطفال، وفي أحيان أخرى يمتزج صوتها مع أصواتهم ليعكس تجربتهم الجمعيّة. تخبرنا عن وقتهم الذي قضَوْه معًا على شاطئ دير البلح وكيف وصلوا إلى هناك.

تشرح بيسان كيف صادفت ليان أدهم أبو العطا (12 سنة) على الشاطئ، وهو المكان الذي تذهب إليه ليان لتجلس وتحدِّق في البحر، دون أن تلعب في رماله وأمواجه، بل تضيع في تفاصيل حياتها داخل الإبادة. تذهب هناك هربًا من الملجأ الذي هُجِّرت إليه، كما تخبرنا بيسان. وبينما تصف ليان بعضًا من

تجاربها المروّعة خلال نزوحها من الشجاعيّة جنوبًا، نسمع محاولة المستعمِر لتشكيل ما نراه:

> آخر شيء كنت في مدرسة بِتلّ الهوى. صار القصف شديد وقريب منّا. حاصرونا. الدبّابات يضربوا والطيّارات تقصف. وفي مستشفى الشفاء، كانوا يطلبون منّا نفتح عينينا والّا بِطخّونا. كانوا بحكولنا إذا غمّضت عينيك رح نطخّك. بعدها نزحنا على دير البلح... بَخاف من يلّي شفته في عيوني... بَخاف بَس أرجع أشوف البنت يلّي كانت معنا بالمدرسة وإجت شظيّة في بطنها طلع كلّ جسمها يلّي جوّا لبرّا، صرنا نلمّ شراياينها في كياس من ساحة المدرسة. كان عندها ولد صغير بِرْضَع، تركته وتحوّلت لشرايين في كلّ المدرسة.

تتداخل كلمات بيسان مع كلماتهم: "يطلبُ الاحتلال من النازحين المدنيّين في مجمَّع الشفاء الطبّيّ أن يُبقوا أعيُنَهم مفتوحة وإلّا فسيموتون؛ ليشاهدوا جرائمَهم وتبقى ذاكرَتُنا تحفظُ مشاهِدَ موتِنا وإن لم نمت".

في حديثها مع محمّد موسى أبو جياب (15 عامًا)، يصف كيف كان يخرج إلى البحر قرب الحدود مع مصر ويلقي بشِباك الصيد، فيصطاد الأسماك بمختلف الأشكال والألوان، إلى أن حاصرهم الاحتلال وأصبح البحر مسرحًا للحرب الاستعماريّة. يقول: "بطّلنا ناكل من لَمّا انقطعنا عن البحر". بنسيج مع كلماته تصف بيسان حصار الاحتلال الكامل لكلّ جوانب البحر والمداخل البرّيّة لقِطاع غزّة، والحرمان المتعمَّد من الطعام وتدمير سُبُل العيش الفلسطينيّة، ممّا تَسبَّبَ في فقدان عائلة محمّد لمصدر دخْلها وقدرتها على توفير الطعام للعائلة. ويتحدّث محمّد عن البحر أثناء الحرب قائلًا: "لا يمكننا ترك بحرنا وحيدًا، ولا نملك مكانًا آخر غيره، وإن كنّا نملك مكانًا، فهذا بحرنا... تعلّمت الصيد من جَدّي وأوّل ما رأيته هو البحر".

بينما تركّز بيسان على ما عاشه الأطفال خلال الحرب، تطرح أيضًا عليهم أسئلة حول حياتهم قبل ذلك وما يأملونه في المستقبل القريب. وبذلك، لا يُبنى السرد كشهادات على العنف الاستعماريّ حيث يكون الأطفال ضحايا للإبادة الجماعيّة كحدث لحْظِيّ محدَّد. بدلًا من ذلك، تقدّم لمحات عن حياتهم ككلّ أكبر، متجذّرة في تاريخ الاحتلال الاستعماريّ الذي دام عقودًا من الزمان، مع التركيز على تفاصيل حياتهم اليوميّة قبل وأثناء هذه الإبادة. تُقدِّم لنا أدهم أحمد أبو مغصيب (14 عامًا) الذي يعيش في المناطق الحدوديّة شرق دير البلح والذي يتذكّر حروب إسرائيل السابقة على القِطاع حيث دُمِّر منزله وأراضي عائلته، أماكن تحمل ذكريات طفولته. يتحدّث عن القصص التي كانت جدّته تحكيها لهم عن تقسيم العمل لزراعة الأرض، قائلًا: "الزراعة تعني لي كلّ حاجة، لَمّا يخرب الزرع بنروح نجيب دواء عشان نعالجه، وبنحافظ عليه، بنغطّيه لأنُّه عنّا حمّامات زراعيّة. لَمّا البندورة تطيح [تسقط] على الأرض بنروح نعلّقها في حبال ونقلّم الورق الميّت عليها". يكمل حديثَه عن حبّه للأرض قائلًا: "أربعة وعشرين ساعة في الأرض، بَزْرَع وبَتْأمّل زراعتنا. الأرض حياتي".

تُشير سرديّات كلّ مِن أدهم ومحمّد إلى ما حُرِما منه هما وأُسرتاهما أثناء الحرب على المستوى المادّيّ، وفي ذات الوقت تُظهِر اعترافًا بإحساسهما بالانتماء والالتزام: محمّد لشواطئ غزّة، وأدهم للأرض الزراعيّة. كما هو الحال في كثير من الأحيان، إحساسهما بالانتماء يجري التعبير عنه من خلال العلاقة المتواصلة عبْر الأجيال؛ محمّد يتعلّم الصيد من جدّه، وأدهم يتعلّم عمل الزراعة من جدّته. إنّ استهداف إسرائيل لهذه المِساحات التي تحدّد طفولتهما هو في نفس الوقت محاولة لمحو

وتدمير العلاقة والصلة ما بين الأجيال. بالرغم من ذلك، ذكريات أدهم ومحمّد وطرق تعبيرهما عنها تعكس وعيًا سياسيًّا تمامًا كما تُعبّر عن المساحات الحميميّة في طفولتهما.

تأطير وإعادة تأطير الطفل

من المهمّ أن نتساءل عمّا نعرفه عن الأطفال في سياقات الحرب والنضال من أجل التحرّر، وكيف وصلنا إلى معرفة ما نعرفه. لقد هيمنت الفلسفة الوضعيّة على معظم الدراسات والتوجُّهات النفسيّة التي درَست الأطفالَ الفلسطينيّين،[8] معتمدةً على نظريّة معرفيّة (إپستمولوجيا) تُدرك الواقع كحقيقة خارجيّة أحاديّة كونيّة محكومة بقواعد طبيعيّة، ومن هنا تدّعي اكتشاف جانب من "الطبيعة البشريّة"[9] لدى الطفل. بعبارة أخرى، يُدرَك الواقع باعتباره مُعطًى محدَّدًا وكيانًا مُسلَّمًا به يتجاوز المكان والزمان. يُضفي البحث من هذا المنظور طابعًا فرديًّا لحياة الناس النفسيّة، حيث يُنظر إلى الفرد باعتباره كِيانًا مستقلًّا في الإمكان دراستُه وفَهْمُه بمعزِل عن البنى الاجتماعيّة السياسيّة. يتحوّل الأفراد إلى موضوعات للبحث، ويجري اختزالهم إلى متغيّرات منفصلة من أجل تحقيق قياس "دقيق"، وعلى الباحث أن يكون بعيدًا ومنفصلًا حتّى لا "يلوّث" المعرفة المنتَجة. على هذا النحو، تُصبح أنواع محدّدة من المعرفة ذات قيمة -تلك التي تنسجم مع ما أصبح يُسمّى "عِلْمًا"- وبالتالي يجري نزع الشرعيّة عن أنواع أخرى من المعرفة وأدواتها.[10] في الغالب تُبنى المعرفة النفسيّة من خلال التوجُّهات الوضعيّة السائدة وهي فرديّة ولا_تاريخيّة ومنزوعة السياق، أي تعمل على فَرْدَنَة الحياة النفسيّة للأفراد والجماعات وتؤطّر المشكلات التي تواجههم على أنّها اختلالات شخصيّة داخليّة دون الالتفات إلى أبعادها البنيويّة، ممّا يعمل على الحفاظ على الوضع القائم وأنظمة القوّة والاضطهاد.

ينشغِل معظم الأدب المنشور حول الأطفال الفلسطينيّين بقياس اضطرابِ ما بعد الصدمة (PTSD)، حيث تجري مَفْهَمَة الصدمة كظاهرة فرديّة ممّا يعني تأطيرًا ضمنيًّا للصدمة من منظور النموذج الطبّيّ/ الإكلينيكيّ كنموذج يُمثّل "الحقيقة". ضمن هذا النموذج، يجري تمثيل الأطفال الفلسطينيّين كضحايا مريضة تعاني من اضطراب ما بعد الصدمة وبحاجة ماسّة إلى مساعدة من قِبل الخبراء. ينعكس هذا التأطير الأيديولوجيّ للصدمة بصورة متوازية في التدخُّلات النفسيّة التي ترمي إلى شفاء الطفل الفلسطينيّ.[11] عندما يُنظر إلى الصدمة من بُعد فردانيّ لا_سياقيّ، تُصبح المعاناة أمرًا خاصًّا وشخصيًّا، ممّا يُشكّل أساسًا للتدخُّلات التي تستهدف العوالم الداخليّة للأفراد كحيّز ينبغي تغييره بمعزل عن هياكل القهر الجمعيّ. عندما تعمل برامج الإغاثة من الصدمة على تجاهل

8. Haj-Yahia, Muhammad (2007). Challenges in studying the psychological effects of Palestinian children's exposure to political violence and their coping with this traumatic experience. *Child Abuse & Neglect*, 31(7), 691-697. DOI: 10.1016/j.chiabu.2007.05.002

Makkawi, Ibrahim (2017). Towards decolonizing community psychology: Insights from the Palestinian colonial context. In Davide Boniforti, Cinzia Albanesi & Aalberto Zatti (eds.). *Frontiere Di Comunita: Complessita a confronto* (pages 7-33). DOI: 10.6092/unibo/amsacta/5502

9. Martín-Baró, Ignacio (1994). War and psychosocial trauma of Salvadoran children. In Adrianne Aron & Shawn Corne (Eds.), *Writings for a liberation psychology* (122-135). Massachusetts: Harvard University Press.

10. دكور، لويس، عويدات، علي، عمرو، زينة (تشرين الأوّل، 2022). أساسيّات للتحرُّر النفسيّ: منظور مناهض للاستعمار. عدسات منصّة تحرُّريّة مستقلّة. https://url-shortener.me/2F1Z

11. Sousa, Cindy &Marshall, David (2015). Political violence and mental health: Effects of neoliberalism and the role of international social work practice. *International Social Work*, 60(4), 787-799. https://doi.org/10.1177%2F0020872815574128

الطبيعة السياسيّة للعنف تُصْبح عنفًا مزدوجًا ضدّ الأطفال الفلسطينيّين، تجرّدهم من واقعهم الحاليّ وتاريخهم الجمعيّ وصراعهم نحو التحرُّر.[12] وفي الوقت ذاته، تتقاطع الخطابات الإنسانيّة حول الصدمة وضحاياها مع أسس الاستعمار الاستيطانيّ الصهيونيّ الذي يَحرم الفلسطينيّين من نضالهم السياسيّ من أجل التحرُّر،[13] وتؤطّر معاناتهم على أنّها أمر طبيعيّ، بما في ذلك معاناة الأطفال، من خلال تجريم وجودهم.[14]

إنّ الهندسة المتعمّدة والممَنْهَجة للمعاناة النفسيّة هي جزء من ترسانة إسرائيل الاستعماريّة، بدءًا من السَّجن السياسيّ للأطفال -والذي يؤثّر على عائلاتهم ومجتمعاتهم الأوسع، ويصبح عاملًا حاسمًا في تحديد هُويّتهم ومستقبلهم-[15] إلى التعذيب الجماعيّ على جميع سكّان قِطاع غزّة المحاصَرين خلال هجمات القصف المتعدّدة على مدى السنوات الماضية.[16] تتجاهل معظم الدراسات العمل النفسيّ-السياسيّ لهياكل الاستعمار الاستيطانيّ التي تُصمَّم وتُنفَّذ بعناية لتعطيل حياة الفلسطينيّين في أبعادها المختلفة،[17] أو يُنظر إلى المعاناة النفسيّة باعتبارها نتيجة ثانويّة أو عَرَضيّة للعنف السياسيّ،[18] وبالتالي غالبًا ما يُترك مفهوم الصدمة دون أيّ تساؤل أو تَحَدٍّ أو تأطير، ويصبح التشخيص النموذجَ المفترَض عند الإشارة إلى الطفل الفلسطينيّ. من المهمّ إدراك الاستعمار الاستيطانيّ كبنْية تستهدف بشكل متعمَّد الشخصيَّ والجمعيَّ، وتعمل كذلك على نحو متعمّد على تعطيل الطفولة والوالديّة والمستقبل والأمل والإحساس بالهُويّة الجمعيّة. لا تدخل تلك البنْية ضمن الأطر التحليليّة المهَيْمِنة في عمليّات الكتابة والبحث والإغاثة للطفل الفلسطينيّ.

12. Marshall, David, & Sousa, Cindy (2017). Decolonizing trauma: Liberation psychology and childhood trauma in Palestine. In Christopher Harker & Kathrin Hörschelman (Eds.). *Conflict, Violence and Peace*, 11, 287.

13. Sheehi, Lara & Sheehi, Stephen. (2022). *Psychoanalysis under occupation: practicing resistance in Palestine*. Routledge.

14. Shalhoub-Kevorkian, Nadera (2019). *Incarcerated childhood and the politics of unchilding*. Cambridge, United Kingdom: Cambridge University Press. **https://doi.org/10.1017/9781108555470.002**

Shalhoub-Kevorkian, Nadera (2020). Speaking Life, Speaking Death: Jerusalemite Children Confronting Technologies of Violence. In Sandra Walklate, Kate Fitz-Gibbon, JaneMaree Maher and Jude McCulloch (Eds.). *The Emerald Handbook of Feminism, Criminology and Social Change (253-270)*. **https://doi.org/10.1108/978-1-78769-955-720201021**

15. Shalhoub-Kevorkian, Nadera (2019). *Incarcerated childhood and the politics of unchilding*. Cambridge, United Kingdom: Cambridge University Press. **https://doi.org/10.1017/9781108555470.002**

16. Shehadeh, Said (2015). The 2014 War on Gaza: engineering trauma and mass torture to break Palestinian resilience. International Journal of Applied Psychoanalytic Studies, 12(3): 278-294. **https://doi.org/10.1002/aps.1457**

17. Shalhoub-Kevorkian, Nadera (2019). *Incarcerated childhood and the politics of unchilding. Cambridge*, United Kingdom: Cambridge University Press. **https://doi.org/10.1017/9781108555470.002**

Shalhoub-Kevorkian, Nadera (2020). Speaking Life, Speaking Death: Jerusalemite Children Confronting Technologies of Violence. In Sandra Walklate, Kate Fitz-Gibbon, JaneMaree Maher and Jude McCulloch (Eds.). *The Emerald Handbook of Feminism, Criminology and Social Change (253-270)*. **https://doi.org/10.1108/978-1-78769-955-720201021**

18. Shehadeh, Said (2015). The 2014 War on Gaza: engineering trauma and mass torture to break Palestinian resilience. International Journal of Applied Psychoanalytic Studies, 12(3): 278-294. **https://doi.org/10.1002/aps.1457**

صورة رقم 2: طفلة تلعب على شاطئ دير البلح في قِطاع غزّة. التَقَطت الصورةَ بيسان نتيل في آذار 2024.

إذا نظرنا إلى الكيفيّة التي توظّف فيها هياكل الاستعمار الاستيطانيّ الصدمة كسلاح، فإنّ القتل الجماعيّ للأطفال الفلسطينيّين يصاحبه إجبارهم على مشاهَدة العنف والإذلال المروِّع والمتعمَّد الذي تمارسه إسرائيل عليهم، إضافة إلى التدمير المقصود وإعادة تشكيل مِساحات عيشهم. يُشير خوف ليان في سردها ممّا رأته في المدرسة التي لجأت إليها إلى أنّ فضاءات التعلُّم والشفاء أصبحت كذلك مبتورة. وعلى النقيض من مَرْضَنَة الأطفال واعتبارهم ضحايا صدمات الحرب، فإنّ تأطير بيسان لتجربة ليان من خلال تسليح إسرائيل للصدمة يكشف عن الحقائق النفسيّة لحرب الإبادة الإسرائيليّة والممارسات المتعمَّدة للبتر على مستوى الجسد والمجتمع والذات والعائلة والوطن ومِساحات العيش والمستقبل.

في سرد بيسان مع شيماء فايز البيراوي (19 عامًا) من السودانيّة، تُظهر استمرارَ سياسات الاحتلال في بتر وتقييد المستقبَل المتخيَّل واحتمالاته للجيل القادم الذي ينجو من الإبادة الجماعيّة. تحزن شيماء على فقدان حيّها الذي وصفته بأنّه مجتمع حيويّ ومتماسك أصبح الآن "مدينة أشباح لا تصلح للعيش". بعد أن بدأت للتوّ عامها الأوّل في جامعة الأقصى في أوائل تشرين الأوّل 2023، وصفت حماستها لإنهاء دراستها الثانويّة وامتحان التوجيهيّ، وإمكانيّة رسم مسارها الخاصّ أثناء متابعتها لدراستها الجامعيّة. في إطار استهداف إسرائيل للبنى التحتيّة في قِطاع غزّة، تعرّضت المدارس والجامعات للقصف المدفعيّ، ودُمِّرت جامعة الأقصى.[19] ترثي شيماء هذا المستقبل الذي كانت تحلم به قبل الإبادة.

19. لمعرفة المزيد حول تدمير التعليم العالي في غزّة، يمكن الاطّلاع على:
Amer, Mohammedwesam (2024). Personal Reflections on Israel's War on Education in Gaza. *Journal of Palestine Studies*, 53(4), 44–49. https://doi.org/10.1080/0377919X.2024.2447220

تصف شيماء أيضًا نزوحها القسريّ المتعدّد للنجاة من القنابل، وتصف اللحظة التي وجدت فيها جسدها تحت الزجاج المحطَّم لنافذة الغرفة، محاطة بدخان القصف وتواجه صعوبة في التنفُّس. تقول: "نزلت مش عارفة وين أخويا؟ وين أختي؟ وين الكلّ؟... وفي الشارع انقصفت شحن والدي، كلّ حياتنا قدّام منّا بتروح. شغل أبويا تدمّر في ثانية، وأنا مش قادرة أنقذه. شفته بنحرق قدّام عيني، ضلّيت أراقب فيه".

بينما تستمرّ شيماء في تفصيل التجربة المؤلمة لعدم وجود مكان آمن لتكون فيه، تفتَتِح روايتها وتختتمها بأحلامها وأملها للمستقبل، التي جُسِّدت لنا في سرديّة تشتبك فيها رؤية بيسان لشيماء وكلمات شيماء ذاتها. إنّ هذا التنقُّل بين ضمير المتكلّم والغائب، وبين الماضي والمستقبل، يُقاوِم تقديم قصّة شيماء باعتبارها قصّة ضحيّة توفّر أدلّة على جرائم الاحتلال، لا باعتبارها إطارًا يُحدِّد حياتها من خلال هذه التجربة وحدها. عوضًا عن ذلك، قُدِّمت لنا قصّة شيماء كصورة حيّة لمستقبل تتخيّله في مواجهة المحو الاستعماريّ.

لم تُقدَّم تجربة شيماء وتجارب أطفال آخرين مع العنف الإباديّ -بتكراراته المتعدّدة والمتنوّعة- كتجربة مَرَضيّة، ولا جرى تطبيع التجربة كجزء من الاعتداءات الإسرائيليّة المتكرّرة على قِطاع غزّة في العَقدَيْن الماضيَيْن. في الواقع، جميع الأطفال الذين انخرطت معهم بيسان في السرد عايشوا على الأقلّ حملتَيْن من القصف العدوانيّ الإسرائيليّ.[20] وعلى غرار سرديّات أدهم ومحمّد، فإنّ صوت شيماء متجذّر في مسار تاريخيّ ومجتمعيّ أطول يؤرّخ المستقبل كذلك.[21] بعبارة أخرى، المستقبل المتخيَّل ليس معزولًا عن تاريخ عائلاتهم وشعبهم، بل إنّه منسوج ضمن تاريخ من النكبات المستمرّة والمتجدّدة. بهذا السرد إذ يُقدِّم لنا مسارًا لرؤية حَيَواتنا وصناعة المعنى.

إعادة صياغة المعنى

خلال اللقاء الذي أقيم في جامعة بير زيت، سأل أحد الطلبة كيف لاحظت بيسان الاختلاف بين تجربة الأطفال للحرب مقارَنةً بتجربة الراشدين. عند الإجابة عن تساؤله، وصفت كيف كانت تحاول فَهْم ما كان يحدث عندما نزحت في المرّة الأولى إلى دير البلح. التقت بالطفلتَيْن، نسرين العطّار (10 سنوات) وملك العطّار (6 سنوات)، وكانتا تسألان بيسان ما إذا كانت تستطيع النوم ليلًا، وتحدّثتا حول الصعوبة في النوم. أخبرت نسرين بيسان أنّها تجمع صدف البحر عندما تحاول النوم. ومن خلالها كانت تسمع أمواج البحر من الملجأ الذي نزحت إليه، فتتخيّل نفسها على الشاطئ وهي تشعر بالسعادة، فأعطت بيسان بعض الأصداف وطلبت منها أن تفعل الشيء نفسه. تتساءل بيسان بدهشة: كيف تمكّنت طفلة تبلغ من العمر عَشْر (10) سنوات من إيجاد الأمان في أصداف البحر،

20. في حين أنّ الإبادة الجماعيّة الإسرائيليّة المستمرّة استثنائيّة في نطاقها في تدمير حياة الفلسطينيّين وأرضهم والمجتمع للأجيال القادمة، شنّت إسرائيل حروبًا عدوانيّةً وحملاتِ قصفٍ متعدّدةً على قِطاع غزّة المحاصَر، بالإضافة إلى سياسات عنيفة من الحصار والإفقار والقمع الاستعماريّ. انظر:

Filiu, Jean- Pierre (2014). The Twelve Wars on Gaza. *Journal of Palestine Studies*, 44(1), 52–60. https://doi.org/10.1525/jps.2014.44.1.52; Li, Darryl (2006). The Gaza Strip as Laboratory: Notes in the Wake of Disengagement. Journal of Palestine Studies, 35(2), 38-55. https://doi. org/10.1525/jps.2006.35.2.38.

Roy, Sara (2016). *The Gaza Strip: The Political Economy of De-Development*, 3rd ed. Institute for Palestine Studies.

21. Shalhoub-Kevorkian, Nadera (2006). Negotiating the Present, Historicizing the Future: Palestinian Children Speak About the Israeli Separation Wall. *American Behavioral Scientist*, 49(8), 1101-1124. https://doi.org/10.1177/0002764205284721

وإيجاد شيء يطَمْئِنها أثناء بقائها على قيد الحياة في غرفة مع تسعة وعشرين (29) فردًا من أفراد عائلة نازحة، بعضهم ينام على فِراش، وبعضهم على الأرض؟

صورة رقم 3: نسرين تُظهر الأصداف التي جمعتها لبيسان. التَقَطت الصورةَ بيسان نتيل في آذار 2024.

تساءلت بيسان: "ماذا تعني الخيمة الآن للطفل؟ عندما كنّا أطفالًا، كنّا نصنع خيمة من الوسائد للّعب فيها. الآن لم تَعُد الخيمة لعبة بل أصبحت مؤلمة للطفل وأُسْرته". وفي وصفها لعمليّة إعادة تشكيل الحرب للمعاني الأساسيّة في حياتهم، قالت: "بدل ما الطالب يكون في المدرسة، تحوّل بنك المدرسة لبسطة بضاعة وبِبيع فيها، وبدل ما يحكي جدول الضرب بيصير ينادي الـ 4 بـ 10 [شيكل] البسكوت... وإذا حصّل مصاري أكثر بِرَوِّح كثير مبسوط، لأنّه بِجيب ربطة خبز وعلبة جبنة وح يتعشّوا الليلة".

وتتساءل: "كيف تغيّر فَهْمهم للرياضيّات والمدرسة والدراسة والحياة الآن؟ وبنظرة ثاقبة، لا تحاول بيسان تقديم استنتاجات شاملة لفَهْم تجارب الأطفال أو تجاربها الخاصّة. عوضًا عن ذلك، تشارك تفاصيل هذه التحوُّلات وتطرح أسئلة حول كيفيّة فَهْمنا للعنف الاستعماريّ الصهيونيّ الإباديّ وللنضال الفلسطينيّ المتوارَث عبْر الأجيال نحو الحياة والتحرُّر".

صورة رقم 4: نسرين تقوم بإعادة تشكيل متر ليصبح على شكل قلب. التَقَطت الصورةَ بيسان نتيل في آذار 2024.

لم يكن فعل التوثيق الذي قامت بها بيسان متصوَّرًا مسبقًا أو مَصُوغًا على نحوٍ اختزاليّ كشهادة مبنيّة على الأدلّة، وإنّما وصفت كيف بدأ عملها في تسجيل قصص الأطفال في فضاء وظروف مشتركة. هؤلاء هم الأطفال الذين تعرّفت عليهم من خلال أنشطة تفريغيّة أَجْرَتْها معهم في الملجأ من خلال عملها مع مؤسّسة تامر.[22] وعندما التقت بهم على شاطئ دير البلح، دارت بينهم محادثات عفْويّة حول البحر والأسماك والمناطق التي نزحوا منها. وظلّت الصور الناتجة عن حِواراتهم حيّة في ذاكرتها، وسرعان ما وجدت نفسها تُحوّلها إلى نصوص قصيرة تبحث في مفهوم الأطفال للبحر قبل الإبادة وأثناءها. عبّرت بيسان عن ذلك بقولها: "وأثناء وجودنا على البحر، منبلّش نحكي بكثير أشياء كيف منلعب على الرمل وعلى البحر وإيش صار معنا. بالأوّل ما كنتش بفكّر إنّي أسجّلها للقصّة أو أكتبها بشكل إنّه تتحوّل لمادّة بتوثّق الإبادة اللي إحنا حاليًّا بنعيشها. نَصّ على نَصّ من نسرين وملك العطّار لحبيبة ومن حبيبة لأدهم بلّشت تتشكّل عندي رؤية لَشُو مفهوم الحياة بالنسبة لإلْهم في ظلّ هذا العدوان".

قادها ذلك إلى التفكير في ما يلي: بِمَ تسأل الأطفال؟ كيف تسألهم؟ كيف تصغي لهم؟ كيف توثّق قصصهم؟ أوضحت أنّها تسأل الأطفال عن حال حياتهم قبل الإبادة الجماعيّة، وعادة ما تكون الإجابة ابتسامة من الأطفال عندما يسمعون هذا السؤال.

22. "مؤسّسة تامر للتعليم المجتمعيّ" مؤسّسة تربويّة غير حكوميّة وغير ربحيّة. أُسّست عام 1989 خلال الانتفاضة الأولى في فلسطين، بهدف تطوير بيئات تعليميّة للأطفال واليافعين خارج نطاق المدارس الرسميّة.

عملت حرب الإبادة هذه على تدميرٍ ممنهَج للحياة والأنظمة التي تحافظ على الحياة وكلّ ما يشير إلى الحياة، وذلك بواسطة أسلحة عالية التقنيّة. شعرت بيسان بالحاجة الملحّة إلى توثيق قصصهم المرويّة؛ إذ ثمّة خوف من فقدان القصّة وتفاصيلها والعواطف التي ترافقها. هناك خوف من فقدان الحياة، وخوف مِن فقدانِ مَن يوثّق ومَن يَروي. وصفت بيسان سماع قصص نكبة عام 1948 من جدّتها يُسرى عندما هجّرت عصابات الإرهاب الصهيونيّة عائلتها من أراضيهم في المجدل. كانت جدّتها آنذاك تبلغ من العمر عَشْر (10) سنوات فقط، تمامًا مثل نسرين. اليوم، تستمع بيسان إلى الأطفال وهم يصفون ما حدث خلال هذه النكبة. وعلى النقيض من جمع القصص الشفويّة والحياتيّة من نكبة عام 1948، أو سماعها لاحقًا أثناء مراحل النموّ المختلفة داخل الأسْرة، تُروَى هذه القصص وتُكتب في اللحظة ذاتها، من داخل الإبادة الجماعيّة الحاليّة؛ وهو ما يعني أنّ المسافة القائمة بين مَن يسمع قصص نكبة عام 1948 الذي وُلِد بعدها بسنوات تنهار مؤقّتًا في السرديّات التي تقدّمها بيسان.[23] تتّحد قصص بيسان مع قصص الأطفال، وذلك بالرغم من التنوُّع وتعدُّد الأصوات فيها، إلّا أنّها تجارب مشترَكة كُتِبت بالتزامن مع التجارب الجمعيّة للنزوح والدمار الشامل والإبادة.

لقد وفّرت سرديّات نكبة عام 1948 مسارًا أمام تأمُّلات ومناقَشات نقديّة غنيّة حول ممارسة جمع وتوثيق وأَرْشَفَة وقراءة التاريخ والتجارب الفلسطينيّة.[24] أمّا عن السرديّات التي تُروى عن الحياة خلال النكبة الحاليّة، فسوف تُشكِّل الكيفيّة التي بها نفهم عمل الشهادات الشخصيّة والتاريخ الشفويّ والذاكرة. لا يمكن تصنيف ما تقوم بها بيسان ضمن الأنواع السائدة للسرد الشفويّ، أو سرد القصص، أو الحِوارات أو التأمُّلات الشخصيّة أو الشهادات، بل يعكس النصّ الذي تُنتِجه -على نحوٍ جزئيّ- تفاعلاتِها مع الأطفال ودوافعَها للبدء في إيجاد اللغة لصناعة المعاني حول النكبة الحاليّة. تستمع بيسان وتُدرك أنّهم قد نجَوْا معًا في هذه اللحظات الملتقَطة، وتصف مسؤوليّتها للحفاظ على قصصهم من الفقدان- قصص للمستقبل، وقصص حول الحاضر وذكريات الماضي الجمعيّ التي تقود هذا المستقبل.[25]

---

23. يتناول محمود زيدان هذه الفجوة في مقدّمة كتابه المحرَّر عن سرديّات النكبة، متأمّلًا في سياق الحرب في مخيّمات لبنان: "نشترك أنا وأصدقائي بالمصير المرير ذاته، أدركنا أنّ قصص جيلنا تبدو مختلفة عن قصص آبائنا: قصص الهجرة والنزوح المتكرّر، والتفجيرات والفِخاخ، والاختطاف والقتل على الحواجز... تضاءل اهتمامنا بالماضي، كنّا مثقلين بحمل واقعنا وتجاربنا. لم نكن قد أدركنا بعد الاستمراريّةَ العميقةَ بين ما عاشه آباؤنا وما نعيشه".

Zeidan, Mahmoud (2021). Forward: refugee archives and the Nakba archive. In Diana Allen (Ed.). *Voices of the Nakba: A Living History of Palestine* (pp. xvi-xx). **https://doi.org/10.2307/j.ctv1z7kgqb.7**

24. من ضمن كتابات عديدة، يمكن الاطّلاع على:

Sayigh, Rosemary (1998). Palestinian Camp Women as Teller of History. *Journal of Palestine Studies*. 27(2), 42-58.

Sa'di, Ahmad & Abu-Lughod, Lila (2007). *Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*. New York: Columbia University Press

Gluck, Sherna (2008). Oral History and al-Nakbah [Review *of Catastrophe Remembered: Palestine, Israel and the Internal Refugees; Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory; Voices: Palestinian Women Narrate Displacement*, by Nur Masalha, Ahmad Sa'di, Lila Abu-Lughod, Rosemary Sayigh, & Borre Ludvigsen]. *The Oral History Review*, 35(1), 68–80. **http://www.jstor.org/stable/20628003**

Allen, Diana (Ed.). (2021). *Voices of the Nakba: A Living History of Palestine. London: Pluto Press.*

25. استنادًا إلى بيانات الجهاز المركزيّ للإحصاء الفلسطينيّ، شكّل الأطفال الذين تقلّ أعمارهم عن 18 عامًا ما نسْبَتُه 47% من إجماليّ سكّان قِطاع غزّة – أي ما يقارب نصفهم، وذلك اعتبارًا من منتصف عام 2023.

Palestinian Central Bureau of Statistics (November 2023, 28). *The Status of the Rights of Palestinian Children 2023*. **https://www.pcbs.gov.ps/Downloads/book2684.pdf**.

الإبادة، والفراغ، وإعادة بناء المعنى

إنّ الحرب الإباديّة الصهيونيّة-الإسرائيليّة في قِطاع غزّة هي حرب على الوجود الفلسطينيّ. يتمثّل ذلك في القتل الجماعيّ للأطفال والشباب والراشدين وكبار السنّ، وما يرافقه من تدمير الأرض والثقافة والمؤسَّسات، ومحاولات لتفكيك النسيج الاجتماعيّ والحسّ الجمعيّ لأهمّيّة النضال والهدف والوحدة. والهدف واضح: تعطيل الشعور بالأمل والمستقبل لدى الفلسطينيّين في فلسطين. من هنا يظهر بوضوحٍ النظامُ العالميّ العنصريّ الذي شكّلته القوى الدوليّة والإمبرياليّة والرأسماليّة التي شاركت في الحرب. واستمرار تشخيص وإعادة تشكيل الطفل الفلسطينيّ باعتباره ضحيّة مؤسفة وغير مقصودة لصراع غامض لا يؤدّي إلّا إلى تأبيد وضع القهر الراهن.

خاتمة

بَيْنا كنّا نكتب هذا المقال، شاركتْنا بيسان تأمُّلًا إضافيًّا في الرابع من آذار 2025، بعد مرور عام تقريبًا على رفضها لأن تُعْرَف حياتها من خلال الإبادة، ومن خلال سرديّة فُرِضت عليها. صرّحت: "أقف في الفراغ"، وبعدها تساءلت:

> ما هو فراغ الفلسطينيّ في غزّة؟
>
> يختبر الفراغُ الفلسطينيّين بشكل أو بآخر. والمقصود هنا بالفراغ قد يكون من الجنون أن تشعر أو ترى على الأقلّ مِساحات "فارغة" في ظلّ امتلائها، بأعداد النازحين وتكرار حالة النزوح، بالإضافة إلى استعمار الفضاء الصوتيّ: صوت الزنّانات، الكواد كابتر، الهليكوبتر، وغيرها... وصولًا إلى صوت جنزير الدبّابة! أين الفراغ في ظلّ استعمارِ كلّ ما هو محيط بك وإبادةِ المِساحات التي تجعلك تتمنّى لو أنّك كنت بفراغها؟!

بإحساس من الإلحاح وتأمّل عميق، تُواصِل بيسان تكوين لغة قادرة على تشكيل طرق لبناء معنى من الإبادة. شاركت بيسان التأمُّل الآتي قبل تكثيف إسرائيل مجازرها الإباديّة بأسبوعَيْن:

> لا يقتصر الفراغ على الغياب، بل هو أيضًا مِساحة للتحوُّل. عندما تُهدَم مدينة، يتحوّل المكان الذي كان يعجّ بالحياة إلى فراغ: الشوارع، الأزقّة، صوت الصغار ولعبة الكرة في المساء، السماء وهاجسها أسلاك الكهرباء العشوائيّة، ولربّما حبل منشر غسيل جارتك! ليس مجرّد حالة داخليّة، بل هو مرتبط بعلاقتنا بالزمان والمكان... وحين أسمع أصدقائي يتحدّثون عن أنّ مدينتنا كالعنقاء، أفكّر قليلًا مع ذاتي إذا كان لا بدّ من مناقشة نظريّة التطوُّر، فإنّ الفلسطينيّ الغزّيّ وحده خارج حدود هذه النظريّة، وحده كان وما زال "عنقاء" قادرة على النهوض من تحت الركام، ليزيحه ويعيد فعل البناء. هذا يجعلني أتساءل: هل الفراغ هو الشرط الأساسيّ للإحساس بالزمن- زمن الإبادة؟

من خلال تحليلاتها العميقة وتوثيقها لتجارب الأطفال الذين التقت بهم على شاطئ دير البلح، تصنع بيسان مِساحة للحديث عن الحياة قبل الإبادة وبعدها، حول كيف تغيّرت معاني ومفاهيم الوجود بالنسبة للأطفال وبالنسبة لها، وكذلك حول المستقبل. في خضمّ ذلك، تقدّم لنا قصَص أطفال غزّة وكذلك أجزاءً من ذاتها، كما تقدّم لنا سِجِلًّا عن الإبادة الجماعيّة ولمحة عمّا تُحْدِثه -بتفاصيلها- في

الأجساد والذوات وفي الماضي والمستقبل الجمعيّ. بالنسبة لبيسان، تمثّل قصص الأطفال هذه دعوة إلى التطلّع المستقبليّ. تسأل بيسان: "كيف سننظر إلى هذه القصص بعد الحرب؟ ماذا ستغيّر بالنسبة لنا؟".

مدى الكرمل
المركز العربي للدراسات
الاجتماعية التطبيقية